

الوقت ذاته تتولى الترويج لمركز "البحرين لحقوق الإنسان" المحظور من خلال نفوذها الواسع في الصحف والإذاعات والفضائيات الأمريكية. ومن المثير للاهتمام أن شركة (Fenton) نفسها تمثل منظمة (USAID) و"مركز البحرين لحقوق الإنسان"، بالإضافة إلى مجلس العلاقات الأمريكية-الإيرانية (National Iranian American Council) الذي ينشط من خلاله اللوبي الإيراني في أمريكا.

"جهود التنقيب وجذور الهوية الوطنية"⁶⁵

ارتبط تاريخ البحرين القديم بمجموعة من الأساطير التي لا تزال تفرض نفسها على كتابات المؤرخين المحدثين؛ إذ تجد الكتابة الرومانسية المعاصرة أفقاً واسعاً في التاريخ للعصور القديمة في البحرين ابتداء من أسطورة: "زهرة الخلود"، مروراً بقصائد: "أرض الفردوس"، وانتهاء بروايات: "بير محاب"، وغيرها من القصص التي أصبحت جزءاً من الكتابة التاريخية المعاصرة.

وعلى الرغم من استحالة إلغاء "الأسطورة" من السرد التاريخي، إلا أنه لا بد من التذكير بضرورة أن تأخذ الأساطير مكانها الطبيعي في منظومة القصص الشعبي، بدلاً من السماح لها أن تتربع على عرش المصدرية التاريخية كأساس لكتابة تاريخ البحرين القديم.

لقد أدت إشكالية التهاون في السماح للأسطورة أن تنمو كمصدر للتدوين التاريخي إلى بروز ظواهر سلبية في المدرسة التاريخية المحلية، ومن أبرزها: الانفصام بين علم الآثار وعلم التاريخ، وقلة استفادة الكتابة التاريخية المعاصرة من جهود المنقبين. والحقيقة هي أن جهود التنقيب المبكرة قد أسهمت في الترويج للأسطورة بدلاً من المساعدة على توفير الحقائق التاريخية حول نشوء الحضارة وتطورها في البحرين؛ فالمنقبون الغربيون الأوائل (في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) لم يكونوا متخصصين في علم الآثار، بل كانوا إما هواة أو عسكريين ومنهم على سبيل المثال لا الحصر:

⁶⁵ نشر هذا المقال في: صحيفة الوطن، السنة 4، العدد 1192، 16 مارس 2009، البحرين. ص.

- الضابط البريطاني ديوراند (المساعد الأول للمقيم السياسي في الخليج العربي)، الذي قام بدارسة متعجلة لآثار البحرين عام 1879، وانحصرت أعمال التنقيب لديه في فتح تلين كبيرين بعالي باستخدام الديناميت! (دون الالتفات إلى ما يمكن أن يحدثه انفجار الديناميت من دمار واسع في محتويات تلك المقابر)، ليخرج ديوراند بعد ذلك في التقرير الذي قدمه إلى الجمعية الملكية الآسيوية في لندن عام 1880، بأسطورة نسبة آثار البحرين القديمة إلى الفينيقيين!

- أما المنقب الثاني فهو: ثيودور بينيت الذي لم يكن أكثر تخصصاً من سابقه العسكري ديوراند، فقد كان بينيت كاتباً صحفياً أمريكياً من هواة البحث في حضارات الشرق، وقدم إلى البحرين عام 1889، حيث قام بالتنقيب في تلة جنازية من التلال الكبيرة بمنطقة عالي، وأكد على الأصل الفينيقي لبناء هذه القبور!

- وفي سنة 1903 قام المنقب الفرنسي جاك دي مورجان بزيارة للبحرين، وبعد دراسة مستفيضة لبعض أثارها، خرج بنتائج أغرب من سابقه، إذ ادعى بأنه: "لا تضيف المدافن القديمة في البحرين إلى معلوماتنا أي شيء حول العصور القديمة التي هي محور اهتمامنا!"

- وعلى خطى بينيت ومورجان سار الضابط البريطاني الكولونيل إف بي بريدو (المقيم السياسي البريطاني في بوشهر عام 1906)، في التنقيب على قبور عالي عامي: 1905-1906، إذ انتهت جهوده المضنية بتأكيد فرضية نسبة القبور التالية إلى الفينقيين، وفي لحظة عجيبة من التأمل أضاف بريدو احتمال أن تكون أطلال موقع قلعة البحرين تغطي بقايا آثار بابلية!

- وفي عام 1925 ابتعثت السلطات البريطانية إرنست مكاي الذي قام بالمزيد من أعمال التنقيب في قبور عالي، وشرع بعد ذلك في الترويج لفرضية أن بناء القبور التالية أتوا من الجزيرة العربية واستخدموا جزيرة البحرين كمدفن مقدس! وبناء على ما نشره مكاي أصبحت الفرضية التي تنص على أن البحرين كانت محجورة على موتى الحضارات المجاورة شديدة الرسوخ.

لقد أدت أعمال التنقيب التي قامت بها مجموعة من هواة الغربيين إلى ذبوع جملة من الأساطير، كنسبة آثار الحضارة بالبحرين إلى البابليين والفينيقيين، مستبعدين وجود أي حضارة محلية على الإطلاق، لتتحول بذلك "أرض الخلود" إلى "مقبرة للموتى"!

يحلو لنا أن نرمي باللائمة على الغرب كلما تحدثنا عن الظواهر السلبية في مجتمعاتنا، ويمكننا أن نسهب في الحديث عن أخطاء المنقبين الغربيين وعن النتائج الخاطئة التي

خرجوا بها، ودروهم في ترسيخ الأساطير بدلاً من تقديم الحقائق التاريخية، ولكن لا بد من تقرير حقيقة هامة وهي أن أعمال البحث والتنقيب في آثار البحرين قد آتت نتائج مهمة عبر أكثر من قرن من الزمان؛ فالمنقبون الغربيون قد نجحوا (إبان الفترة: 1953-1983) في تحديد موقع دلمون، ثم تمكنوا من كشف أسرارها بتدرج وخطى وبيدة، وبنت كل بعثة نتائجها على الأخرى حتى أصبح لدينا في مطلع الألفية الثالثة كمية كبيرة من الآثار واللقى، ليس في المدافن فحسب، وإنما في المعابد والقلاع، وفي الأختام التي نقلت لنا صورة حية عن المجتمع الدلموني، وأثبتت هذه الأعمال وجود حضارة مزدهرة تميزت بتعدد وسائل الإنتاج الاقتصادي؛ فاعتمدت على الزراعة والصناعة والغوص والتجارة، وتميزت بالتعددية والتسامح بحيث أصبحت ملتقى للحضارات، وأثبتت البحوث بأن المقبرة التاريخية الضخمة في البحرين هي مقبرة لشعب محلي عاش وتناسل وتطور فيها.

إن الإشكالية الأكبر من أخطاء المنقبين الأوائل تتمثل في: عدم ظهور مدرسة تاريخية محلية مرادفة لجهود المنقبين، تسعى إلى تفصي معالم حضارة دلمون بهدف الاستفادة منها في فهم الواقع واستشراف المستقبل.

فتحقيق الفائدة الحقة من آثار البحرين والخلوص إلى نتائج حول الهوية التاريخية وأسس البناء الحضاري، ليست من وظائف المنقبين الغربيين، بل هي مهمة محلية يجب أن تتبع من المشاعر الوطنية المخلصة التي تهدف إلى البحث عن جذور الهوية الوطنية وأصول الانتماء.

إن ظهور الحضارة البشرية في البحرين منذ أقدم العصور، وتوفير عناصر التجانس البشري فيها، بالإضافة إلى ازدهار الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية؛ لهما حقائق جلية تدعمها الآثار واللقى، وهي بالتالي ليست أساطير يتم تداولها في تراث إنكي وجلجامش. ولا بد من بذل جهود أكبر لنشر دراسات علمية جادة حول هذه العناصر التاريخية من مصادرها الأصلية باعتبارها تمثل جذور الهوية البحرينية المعاصرة، وتحدد الأسس التي قامت عليها تلك الحضارة المزدهرة.

وستبقى الثقافة المحلية عالية على العنصر الخارجي، عاجزة عن تطوير نفسها ما دامت معتمدة على جهود الغربيين، وغير قادرة على تأسيس مدرسة تاريخية رديفة تسعى إلى تفصي سبل الرقي وعناصر التحضر التي صنعت حضارة واسعة قبل ما يربو على خمسة آلاف عام.

ولا بد من التنبيه إلى أن إيراد الحقائق السابقة يجب أن لا يؤدي بنا إلى التقليل من جهود الجمعيات التاريخية والمؤسسات الرسمية وكتابات المؤرخين المحليين الذين ظهرت لهم عشرات المصنفات في تاريخ البحرين القديم، بل الهدف مما سبق ذكره هو الحث على ضرورة الخروج من بوتقة النمط الوصفي والأعمال المترجمة إلى أفق أعمال النظريات التاريخية، وتوفير المادة التحليلية التي يمكن الاستفادة منها في الواقع العملي.

وقد أكد على هذه الحقيقة عبد الرحمن مسامح بقوله: "ما ينقص الدارسين لحضارة دلمون اليوم هو وجود الكتابات التي أظهرت جوانب كثيرة من الحضارات الأخرى كحضارة مصر القديمة، وحضارة وادي الرافدين على سبيل المثال، فحجم الكتابات التي اكتشفت في البحرين حتى الآن ما يزال ضئيلاً جداً إذا ما قيس بذلك الحجم الهائل من الكتابات في كلتا الحضارتين".⁶⁶

⁶⁶ عبد الرحمن سعود مسامح (1998) مقدمة في تاريخ البحرين القديم، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر، البحرين. ص 107.